ISSN 2519-9781

التطور العمراني في مدينة مقديشو في ظل الحكم الاستعماري الإيطالي

(1889-1942م)

د. محمد إبراهيم عبدي
أستاذ مساعد بوحدة البحوث بجامعة مقديشو

مستخلص البحث

يتناول البحث موضوع التطور العمراني لمدينة مقديشو في ظل الحكم الاستعماري الإيطالي، وذلك من خلال تتبع التطور العمراني والإداري والسكاني الذي شهدته المدينة بين عامي 1889 و 1942، وعرض نماذج من المعالم العمرانية التي أنشأتها إيطاليا خلال تلك الفترة. ويهدف الباحث من خلال الدراسة إلى المساهمة في كشف الغموض الذي يكتنف تاريخ الصومال عمومًا وتاريخ مقديشو على وجه الخصوص.

وتكمن أهمية الموضوع في كونه يتناول تطور العاصمة في مرحلة من أهم مراحل تاريخها، وهي فترة الحكم الاستعماري الإيطالي وخاصة خلال الحكم الفاشي (1923-1942)، حيث تم في تلك الفترة تأسيس النظام الإداري الذي تسير عليه بلدية مقديشو بعد الاستقلال وحتى الآن، كما تم بناء معظم المرافق العمرانية والاقتصادية الحالية، ولا تزال الآثار الفاشية والفن المعماري الإيطالي يمثل جزءا مهمًا من صورة مقديشو الحديثة. وخلال الدراسة استخدم الباحث المنهج التاريخي الوصفي، واستفاد من المصادر المكتوبة باللغات الإنجليزية والعربية والإيطالية والصومالية التي توفرت لديه. وتوصل إلى بعض النتائج المهمة، ومن بينها أهمية التحول الكبير الذي جرى للمدينة في تلك الفترة، وضرورة إجراء المزيد من البحوث من تاريخ مقديشو التي تحويها الوثائق الإيطالية، وأهمية المحافظة على ما تبقى من تراث المدينة.

الكلمات المفتاحية: التطور العمراني، مدينة مقديشو، الاستعمار الإيطالي.

Abstract

The research deals with the historical development of Mogadishu under Italian colonial rule by tracking the urban, administrative and demographic development witnessed by the city between 1889 and 1942, and view models of urban monuments of the architectural features established by Italy during that period. The author aims, through the study to contribute discovering the mystery surrounding the history of Somalia in general and the history of Mogadishu in particular.

The significance of the article is that it deals with the development of the capital at one of the most important stages of its history, namely the period of Italian colonial rule, especially during the fascist rule (1923-1942), where the administrative system was established which the municipality of Mogadishu after independence until now operate in it as well as the buildings of most of the current urban and economic facilities, and the fascist monuments and Italian architecture art remain an important part of Mogadishu's modern feature. The researcher used the historical descriptive and analytical method, and cited the available references written in English, Arabic, Italian and Somali. The study showed the great transformation of the city during that period, and recommended the need for further research for the history of Mogadishu contained in Italian documents, and the importance of preserving the rest of the city's heritage.

Key Words: Urban development**,** Mogadishu City, Italian Colony.

مقدمـــة

تعتبر مدينة مقديشو من أقدم وأهم المدن، ليس في الصومال فحسب بل في شرق أفريقيا، وظهرت أهميتها ودورها الريادي في المنطقة في عصر السيادة الإسلامية في العالم منذ القرن العاشر الميلادي، وتزخر مدينة مقديشو بكنوز تاريخية وحضارية، وآثار غنية، وتراث إنساني، لم يحصل بعد على الاهتمام والجهد الكافي للتنقيب عن تلك الآثار، والكتابة عن التاريخ الذي تحويه المدينة، والمحافظة على ذلك التراث الإنساني. وقد ازدادت مأساة مقديشو التاريخية والحضارية مع انهيار الدولة الصومالية وانزلاق البلاد في أتون الحرب الأهلية، حيث تعرضت آثارها الحضارية وتراثها الإنساني -الذي تشكل خلال العصور التاريخية المختلفة، وخلفتها الحضارات المتتابعة- للدمار والضياع، وآخرها التراث المعماري الروماني الذي تركته إيطاليا خلال الحكم الاستعماري.

وتكمن أهمية الورقة في مركزية مدينة مقديشو العاصمة التي تتجاوز حدود الألف سنة الماضية، والتي لا زالت تمثل عاصمة الصومال، وعلى هذا الأساس اختار الباحث موضوع الورقة لدراسة جزء من تاريخ المدينة وتطورها وهو مرحلة الاستعمار الإيطالي، حيث تمثل تلك المرحلة بداية ظهور وجه مقديشو الحديث، وبنيت في تلك الحقبة أبرز المعالم العمرانية والحضارية والاقتصادية الحديثة، والتي ما زالت تشكل أجزاء مهمة من المدينة .

وتهدف الورقة، إلى المساهمة في جهود تدارك كنوز وحضارة مقديشو، وذلك عبر تبيين تاريخها وإبراز دور المدينة في قيادة البلاد عبر الأزمنة المتعاقبة، وأسس المعالم العمرانية والاقتصادية التي بنتها أو طورتها الحكومات الإيطالية المختلفة في الحقبة الاستعمارية وآخرها الحكم الفاشي، والتي باتت بعد الاستقلال البنية التحتية للدولة الصومالية الحديثة. وذلك لإتاحة الفرصة للأجيال الصومالية الجديدة - وخاصة أصحاب الثقافة العربية - بالاطلاع على جزء مهم من تاريخ حضارتهم التي تخفيها سحب ودخان الحرب الأهلية والانحطاط الحضاري الذي خلفته تلك الحرب، وربط تلك الأجيال بماضيهم القريب والبعيد على السواء.

وتنحصر حدود الدراسة الزمنية في الفترة ما بين 1889 وهو العام الذي يمثل بداية الاستعمار الإيطالي في الصومال الجنوبي، والذي تم فيه توقيع الاتفاقيات الاستعمارية بين إيطاليا وبريطانيا من ناحية، وبين إيطاليا – ممثلة بشركة فليوناردي – والسلطنات والقبائل الصومالية تحت دعاوى الحماية من ناحية أخرى، وانتهاءً بهزيمة إيطاليا في الحرب العالمية الثانية وإخراجها من الصومال بواسطة بريطانيا عام 1942م. أما الحدود المكانية للورقة فتنحصر في مقديشو المدينة وليست محافظة بنادر التي كانت مقديشو جزءًا منها في ذلك الوقت.

واستخدم الباحث في دراسته للموضوع المنهج التاريخي الوصفي، واستفاد من المصادر المكتوبة باللغات الإنجليزية والعربية والإيطالية والصومالية التي توفرت لديه. وعلى هذا الأساس قسم الورقة إلى أربعة محاور، يقوم المحور الأول من الورقة بإعطار خلفية تاريخية موجزة ومركزة عن تاريخ المدينة في مرحلة ما قبل الاستعمار الإيطالي، ويتناول المحور الثاني الخطوات والمراحل التي مر بها الاستعمار الإيطالي في احتلاله للصومال الجنوبي حتى الاستقلال، أما المحور الثالث فيتحدث عن التطور العمراني والسكاني الذي شهده الصومال خلال الحكم الإيطالي بين عامي 1889 و 1942 بعد هزيمة إيطاليا خلال الحرب العالمية الثانية. ويستعرض المحور الرابع نماذج من المعالم العمرانية التي أنشأتها إيطاليا خلال تلك الفترة.

أولا- نبذة عن نشأة وتطور مقديشو حتى القرن التاسع عشر الميلادي

تعتبر مقديشو من أقدم وأشهر المدن في الصومال وفي منطقة ساحل شرق "أفريقيا"، وذلك على الرغم من صعوبة تحديد تاريخ نشأتها بسب الغموض الذي يكتنف التاريخ الصومالي القديم وضآلة المصادر التي تتناول المنطقة عمومًا، إلا أننا من خلال تتبع الخيوط الأولى لتاريخ المدينة يوجد بعض الاستئناس فيما أورده كتاب "دليل البحر الإرتري" الذي كتبه بحار روماني مجهول تحدث عن مدينة صومالية يسمى سيرابيون (Serapion) ضمن المدن التي ذكرها في الكتاب، وحدد مكانها في الخريطة في موقع قريب لموقع مقديشو الحالي[1]، وكان ذلك خلال القرن الأول الميلادي حين كان البطالمة يحكمون مصر وكانت منطقة البحر الأحمر تحت نفوذهم.

وإذا كانت تلك أولى الإشارات عن مدن الصومال القديمة وعن شبيهة مقديشو في القرن الأول الميلادي، فقد ظهرت المدينة بصورة واضحة أوائل القرن العاشر الميلادي، حيث يعتقد أن المهاجرين العرب هم الذين أسسوها[2]، بالتزامن مع عصر السيادة الإسلامية وظهور دول الطراز الإسلامي في المنطقة، وذلك حين ازدادت قوة العلاقات التجارية والثقافية بين المنطقة والعالم الإسلامي، وبدأ الرحالة المسلمون في زيارة المنطقة وتدوين تاريخها، وتناولتها أقوال الكتاب والرحالة المشهورين في ذلك العصر ، وفرضت المدينة نفسها باعتبارها أقوى المدن والمراكز الإسلامية في منطقة شرق أفريقيا في ذلك الوقت.

وقد بلغت مقديشو أوج ازدهارها في القرن الثالث عشر الميلادي، ويبدو ذلك واضحًا من خلال وصف الرحالة المغربي ابن بطوطة الذي زار المدينة في العام 1331م، وأفرد لها من كتابه مساحة تتناسب مع مكانتها وحجمها، حيث وصف عادات وتقاليد سكان مقديشو من الملابس التي يلبسونها إلى الأطعمة والأكلات المشهورة بينهم، وأحوال التجارة والنظام السياسي الحاكم والهرم والطبقات السياسية، والوضع الاقتصادي المزدهر، والرخاء والرفاهية التي يتمتع بها سكان المدينة، وعلاقة إمارة مقديشو بالعالم الخارجي، وكل ذلك واضح من إعجابه بها. وكان مما قاله عن مقديشو بأنها " مدينة متناهية في الكبر وأهلها لهم جمال في الكبر ينحرون منها المئين في كل يوم. ولهم أغنام كثيرة، وأهلها تجار أقوياء، وبها تصنع الثياب المنسوبة إليها التي لا نظير لها. ومنها تحمل إلى ديار مصر وغيرها"[3].

استمر ازدهار مقديشو كما يبدو من شهادات المؤرخين بعد ابن بطوطة وحافظت عل مركزيتها ومكانتها من بين مدن الساحل الشرقي الأفريقي، وذلك خلال حكم أسرة آل المظفر في القرنين الرابع عشر والخامس عشر التاليين، وكانت أسرة عربية تنتسب إلى المظفر مؤسس الأسرة الحاكمة وزعيم بعض المجموعات العربية المهاجرة إلى المدينة[4]. وفي عهد آل المظفر ازداد ازدهار مقديشو وأصبح تجارها أصحاب ثروة عظيمة، مما جعل مقديشو عاصمة للمدن التجارية في المنطقة. ويبدو أن من أهم الأسباب التي ساهمت في الازدهار التفاهمات السياسية والاقتصادية التي جرت بين آل المظفر – حكام المدينة –

وعشيرة الأجوران التي كان لديها نفوذ واسع في المناطق الداخلية، والتي أقامت فيما بعد أكبر دولة صومالية ضمت معظم المدن الصومالية في الجنوب بما فيها مقديشو لاحقًا. وبموجب تلك التفاهمات قامت عشيرة الأجوران – المسيطرة على طرق التجارة الداخلية آنذاك – بمهمة نقل البضائع من الداخل إلى الساحل والمشاركة كذلك بنقلها إلى الأسواق الخارجية[5].

دخلت منطقة شرق أفريقيا وحوض المحيط الهندي بصفة عامة في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين غزوًا خارجيًا أنهى السيادة الإسلامية على طرق التجارة الدولية بين الشرق والغرب، وهدد الوجود الإسلامي والازدهار الاقتصادي الذي حققته المنطقة، المتمثل في وصول البرتغاليين في الهند عبر طريق رأس الرجاء الصالح، حيث حاربت مقديشو من أجل الدفاع عنها ضد هجمات البرتغاليين، ومن ثمَّ لم يتمكن البرتغاليون من احتلالها مثلما جرى لمثيلاتها من المدن الإسلامية الأخرى، بعد أن تعرضت لهجومين مختلفين، حيث هاجمها فاسكو دي جاما (Vasco Da Gama) في المرة الأولى عام 1498 بعد عودته من الهند ، ولكنه لم يستطع من دخولها[6]. وفي المرة الثانية فرض القائد البرتغالي ترستام داكنها (Tristan Da Cunha) عام 1507حصارًا على المدينة، ثم عدَّل عن الهجوم عليها بعد أن أدرك مدى قوة واستعداد أهلها لمواجهته، وكذلك صلابة حصونها[7].

وكما أُعجب ابن بطوطة مقديشو في بدايات القرن الرابع عشر، فقد جذبت المدينة من جديد انتباه البرتغاليين وإعجابهم بها بعد قرنين تقريبًا من زيارة ابن بطوطة، وذلك على الرغم من فشلهم في اقتحامها والاستيلاء عليها، فقد وصف الرَّحالة البرتغالي دوارتي باربوسا (Duarte Barbosa) الذي زار مقديشو في القرن السادس عشر الميلادي حالة الرخاء التي يعيشها سكانها، وكثرة السفن التي ترسو في مينائها، وكذلك الأرباح الطائلة التي يجنيها تجارها من ذلك، وتنوع الصادرات والواردات إليها، ووفرة الأطعمة واللحوم والفواكه فيها[8]. ولم يختلف وصف فاسكو دجاما المدينة – التي دنا منها ولم يدخلها – بأنها مدينة كبيرة وجميلة باذخة تحيط بها الأسوار، وذكر مبانيها التي شاهدها من فوق سفنه في المحيط بأنها سامقة وشاهقة، وهو ما يدل على مدى التطور العمراني والهندسي

الذي وصلته مقديشو، كما وصف السفن الراسية في مرفئها بأنها كثيرة ولا يحصيها العد[9].

وكما قادت مقديشو لواء الحضارة والازدهار في منطقة ساحل شرق أفريقيا في عصر السيادة الإسلامية على طرق التجارة الدولية، وحملت كذلك لواء الدفاع والممانعة ضد الغزو البرتغالي في القرنين السادس عشر والسابع عشر، فإنها قادت كذلك حملة طرد البرتغاليين من المنطقة لاحقًا، وذلك عبر تحالفها مع القوتين الإسلامية الإقليمية والدولية، وهما العُمانيون والعثمانيون، فقد اتفق البحار التركي علي بك وأهالي مقديشو على التحالف والقضاء على البرتغاليين، وتمكنوا على أثرها من إلحاق الهزيمة بالبرتغاليين،[10] وتمكن لاحقًا التحالف بين العمانيين بقيادة سلطان بن سيف وأهالي مقديشو من هزيمة البرتغاليين عام 1798م[11]، وهو ما مهد لإخضاع العمانيين لمنطقة ساحل شرق أفريقيا تحت دولة زنجبار منذ القرن الثامن عشر الميلادي، وظلت مقديشو تحت نفوذ سلطنة زنجبار حتى مجيء الاستعمار الأوروبي الحديث، وأصبحت مقديشو من نصيب إيطاليا منذ عام 1889م.

ثانيا-خطوات تأسيس المستعمرة الإيطالية في الجنوب الصومالي

كان التحرك الإيطالي نحو تأسيس مستعمراتها في شرق أفريقيا متأخرًا، بسبب كونها دولة فقيرة لم تتطور بعد، وكان 9٪ فقط من مواطنيها يعيشون في المراكز الحضرية وخصوصًا في مدينتي نابولي وميلانو. وكان المسار الذي اتخذته إيطاليا نحو تأسيس مستعمراتها في شرق أفريقيا معقدًا واستثنائيا، وذلك بسبب كونها دولة ينقصها الهيكل الاقتصادي والسياسي للإمبريالية التي كانت تتمتع بها مثيلاتها الأوروبية. وتزامن كذلك تأسيس المستعمرة الإيطالية في الصومال مع مشكلات داخلية وعدم استقرار سياسي عانت منه إيطاليا في تلك الفترة، حيث سادت أجواء التردد في تأسيس المستعمرة والحذر، ووجود انتهاج سياسات متباينة من الحكومات الإيطالية المتعاقبة على الحكم، وهو ما عبر عنه لينين الذي وصف الاستعمار الإيطالي بأنه" المتسول"، وذلك على خلفية الصعوبات السياسية والاقتصادية التي واجهتها إيطاليا بسبب عدم قدرتها على انتهاج أسلوب مباشر أو غير مباشر للحكم الاستعماري، أو أي نظام آخر مميز للبلدان التي استعمرتها[12]. وعلى

هذه الخلفية جاء تأسيس المستعمرة الإيطالية في الصومال التي مرت بعدة خطوات، بدأت المرحلة الأولى منها بالاتفاقية بين إيطاليا وبريطانيا صاحبة النفوذ في منطقة شرق أفريقيا ووريثة سلطنة زنجبار التي كانت تحكم منطقة جنوب الصومال، كما ورثت أيضا حكومة الخديوي إسماعيل في مصر التي كانت تحكم في الشمال الصومالي، حيث تمت الاتفاقية بين الدولتين عام 1889 عبر شركة شرق أفريقيا البريطانية والحكومة الإيطالية[13].

وفور الانتهاء من الاتفاقية مع بريطانيا، شرعت إيطاليا في تنفيذ الاتفاقية وترتيب الأوضاع الداخلية، وذلك بالاتفاق مع الزعماء المحليين في الصومال، حيث أبرمت الاتفاقية الأولى مع السلطان علي يوسف حاكم سلطنة هوبيا في فبراير 1889، والذي أعلن من جانبه أنه وضع سلطنته تحت حماية إيطاليا[14]. وفي مايو في نفس السنة تم إبرام الاتفاقية مع سلطنة عثمان محمود في مجيرتينيا، وتلا لاحقًا تحويل سيادة منطقة بنادر من سلطنة زنجار – عبر الوسيط البريطاني – إلى شركة فليوناردي الإيطالية في يوليو 1893،[15] ليظهر بذلك إلى حيز الوجود شكل المستعمرة الإيطالية في الصومال ابتداء من ذلك التاريخ، حيث شملت حدودها الأراضي الواقعة بين نهر جوبا جنوبًا ورأس جاردفوي شمالًا.

ولم تكن الحكومة الإيطالية هي التي تقوم بإبرام الاتفاقيات بنفسها مع بريطانيا ومع السلطات المحلية الصومالية، بل مثلتها شركة فليوناردي في الفترة ما بين 1889–1896، حيث كان فليوناردي –إلى جانب كونه مالك الشركة – مفوضًا ملكيًا من الحكومة الإيطالية، ثم انتقلت السيادة بعدها إلى شركة بنادر في الفترة ما بين 1896–1905. وكان الوجود الإيطالي قبل تلك الفترة – ممثلا بالشركتين – يتركز على منطقة الساحل والموانى، وذلك بغرض الاستحواذ فقط على التجارة من قبل الشركتين الإيطاليتين، والحصول على الربح السريع فقط بكل السبل المتاحة، وتقليص النفقات العسكرية على الحماية والتأمين[16]. وخلال حكم إدارة الشركتين للمستعمرة كانت الأراضي تدار من قبل التجار الإيطاليين، بالإضافة إلى التجار العرب والهنود والأوربيين في المناطق الساحلية،

وتركزت أنشطة الإيطاليين في الغالب على المدن الساحلية والموانى وأهمها موانى مقديشو وكسمايو ومركا، بينما تُركت المناطق الداخلية للسكان البدو الرحل[17].

انتقلت سيادة المستعمرة الصومالية بعد عام 1905من الشركات الإيطالية الوسيطة إلى الحكومة الإيطالية مباشرة، والتي شرعت بدورها في التأسيس الفعلي للمستعمرة، والتوغل نحو الأراضي الداخلية، وإخضاع القبائل الصومالية، والسيطرة على المناطق الزراعية بغرض الاستثمار والتصدير، ومن ثمَّ أصبح الصومال تحت السيطرة الفعلية للحكومة الإيطالية ابتداء من عام 1908 من خلال توحيد الشمال مع الأقاليم الجنوبية، كما اتخذ الإيطاليون مقديشو عاصمة للمستعمرة[18].

دخلت المستعمرة في الطور الأخير من أطوار تأسيسها بتحول إيطاليا من ملكية إلى جمهورية بقيادة الحكم الفاشي بزعامة الجنرال بنيتو موسوليني الذي أطاح بالملكية عام 1923، واستمرت حتى الإطاحة بالحكم الفاشي خلال الحرب العالمية الثانية، حيث هُزمت إيطاليا في منطقة شرق أفريقيا، وسيطرت القوات البريطانية المنطقة بما فيها الصومال الإيطالي عام 1942م، وقد اكتمل تأسيس المستعمرة الإيطالية في الصومال في العشرينيات من القرن الماضي، وتم توحيد الأراضي الصومالية الواقعة تحت إيطاليا عام 1925، وذلك بتعيين الحاكم العام للمستعمرة سيسار ماريا دي فيشي[19].

تحولت مستعمرة الصومال الإيطالي تحت الحكم الفاشي في منتصف الثلاثينيات من القرن الماضي لتصبح جزءًا من الإمبراطورية شرق أفريقيا، وذلك بعد الغزو الإيطالي على إثيوبيا عام1935، وتأسيس إمبراطورية شرق فريقيا الإيطالية التي شملت بالإضافة إلى الصومال الإيطالي كلًّا من إريتريا وإثيوبيا. وخلال السنوات الخمسة التي كانت عمر الامبراطورية الإيطالية في شرق أفريقيا اتخذت إيطاليا أديس أبابا عاصمة الإمبراطورية، بينما بقيت مقديشو العاصمة التجارية والميناء الرئيس للإمبراطورية، وبدأت الحكومة الفاشية خطوات الربط بين مقديشو وأديس أباباعبر طرق برية[20].

لم يدم عمر الإمبراطورية الإيطالية في شرق أفريقيا طويلًا، حيث اندلعت الحرب العالمية الثانية بعد أربع سنوات من تأسيس الإمبراطورية وتحقيق إيطاليا حلمها القديم في الحصول على نصيب من المستعمرات يليق بمكانتها، فقد أغرت الانتصارات الألمانية

الأولى في المعارك ووقوع فرنسيا على أيدي الألمان – موسوليني زعيم إيطاليا في دخول الحرب إلى جانب هتلر طمعًا في الغنائم، وهاجمت إيطاليا محمية الصومال البريطاني عام 1941، ولكن سرعان ما عاودتها بريطانيا الهجوم بقوات من شرق أفريقيا والهند، استطاعت بعد عام من خسارتها في المحمية تحرير الصومال البريطاني[21]، واستمرت في الزحف حتى احتلت إمبراطورية شرق أفريقيا الإيطالية بأكملها، وتفرض حكمًا عسكريًا على الصومال الإيطالي في الفترة ما بين (1942–1950م).

استمرت السنوات الخمس التالية لنهاية الحرب العالمية الثانية مشاورات بين الدول المنتصرة في الحرب بشأن مصير المستعمرات الإيطالية، حتى تم الوصول أخيرًا إلى فرض وصاية إيطالية برعاية أممية لمدة عشر سنوات على الصومال، ينال بعدها الاستقلال، إذ أصبح الإقليم الوحيد الذي رجع لإيطاليا، في الوقت الذي تم فيه منح ليبيا الاستقلال الكامل، بينما ضُم إريتريا في اتحاد كنفدرالي شكلي مع إثيوبيا بناءً على رغبة الإمبراطور الإثيوبي هيلاسيلاسي. ولم تكن عودة إيطاليا في هذه المرة للاستعمار وإنما لإعداد الإقليم للاستقلال الذي تم بالفعل في الأول من يوليو عام 1960. وكان نظام الوصاية الذي فرضته الأمم المتحدة يهدف إلى تسريع وتيرة السلام والأمن الدوليين، والتطوير السياسي والاقتصادي والاجتماعي والتعليمي لسكان المناطق المشمولة بالوصاية، وضمان الحكم الذاتي والاستقلال لهم، وحماية حقوق الانسان والحريات الأساسية، وعدم التمييز على أساس العرق أو الجنس أو اللغة أو الدين، وذلك استنادًا لميثاق الأمم المتحدة[22].

ثالثا- التطور العمراني والإداري للعاصمة في ظل الحكم الإيطالي

يعتبر نمو مقديشو من حيث العمران والسكان خلال الحكم الاستعماري الإيطالي في الربع الأخير من القرن التاسع عشر مقارنة بالمدن الصومالية الأخري كبيرًا ، وذلك لعدة أسباب أهمها: فرص العمل المتوفرة في المدينة من خلال الخدمات التي كانت تقدمها الإدراة الإيطالية لمواطنيها بالدرجة الأولى، وليس للمواطنين الصوماليين، وظاهرة النزوح المستمرة للسكان من الريف نحو العاصمة جراء الجفاف وقلة الأمطار أو الفيضانات أو الحروب التي كانت تندلع بين الصوماليين وبينهم وبين المستعمرين بين

الحين والآخر. وعلى هذا الأساس فإن حديثنا عن تطور المدينة سوف يتركز على ثلاثة محاور رئيسية، وهي : التوسع العمراني والنمو السكاني والتطور الإداري.

(أ) **التوسع العمراني**: كانت مقديشو المدينة التاريخية لحظة وصول الإيطاليين إليها تتكون من حيين فقط هما: حمروين وشنغاني، وكان حمروين يسكنها الصوماليون البنادريون سكان سواحل المحيط الهندي الذين هم خليط من جنسيات عربية وفارسية وهندية وصومالية، أما حي شنغاني فكان مأوى لليمنيين الذي قدموا من الجزيرة العربية عبر هجرات حديثة، بينما كان السكان الصوماليون الأصليون يعيشون في ضواحي المدينة. وانطلق التوسع العمراني للمدينة منذ نهاية العشرينيات من القرن العشرين، حيث انضمت إليها مناطق جديدة منها أجزاء من أحياء شبس وبونطيرى ورطيغلى الحالية، وكذلك المنطقة التي تعرف بـ "بور كرولى" التي تقع حاليا ضمن حي حمر جبجب. ونشأت المناطق الجديدة من بونطيرى وررروطيغلى بأيدي السكان النازحين من مناطق هوبيا ومريغ وحافون[23].

وفي عام 1929 توسعت المدينة بصورة خيالية، وذلك بمجيء الأعداد الكبيرة من الإيطاليين نتيجة الدعاية التي قامت بها الحكومة الفاشية وتشجيعها للإيطاليين للهجرة للمستعمرة، وقامت الإدارة بإعادة تخطيط المدينة من جديد، وكان من أهم المباني التي تم تشييدها في تلك الفترة: مكاتب الإدارة الإيطالية ومن بينها: مبني حاكم المدينة الذي عرف بقصر الحاكم والكاتدرائية الرومانية وبعض الملاعب والملاهي والمدرسة الإيطالية وقوس النصر، كما تم هدم بعض مناطق العشوائيات التي كانت تضم أكواخ للمواطنين النازحين في حيي حمروين وشنغاني، وتم طردهم إلى خارج المدينة، كما تم شق بعض الطرق الرئيسية ومن بينها الشارع الموازي للساحل التي يربط بين جزئي المدينة حمروين وشنغاني[24].

وخلال فترة نهاية الثلاثينيات من القرن العشرين توسعت المدينة إلى كل الاتجاهات، ومن بين المناطق الجديدة التي انضمت إليها أجزاء من حمر جبجب الحالية التي توسعت إلى ناحية عيل غاب. وفي الجهة الأخرى المقابلة نشأت منطقة رير مانيو، وهم عبارة عن مجتمعات صيد للذين استوطنوا المنطقة التي تقع حاليا ضمن مناطق حي عبد العزيز،

وأصبحت أيضا تعرف (بمعسكر الأمهرا Kaambo Amxaaro). وتعود أسباب تسمية تلك المنطقة بمسكر الأمهرا لكونها ضمت مقرًا للجنود الأحباش الذين تم سجنهم بعد الاحتلال الإيطالي لإثيوبيا منذ عام 1936م. ومن ناحية أخرى فقد أصبحت الأجزاء العليا من حي ورطيغلي وخاصة المنطقة التي يقع حاليًا القصر الجمهوي أو "فيلا صوماليا". ضمن المناطق الجديدة، حيث اتجه توسع المدينة نحو تلك الناحية[25].

تغيرت الأحوال بعد ذلك حيث توقف النمو التي شهدته المدينة منذ العشرين عامًا التي سبقت تلك الفترة، ويعود ذلك إلى عدة تطورات جرت خلال تلك الفترة، وأهمها: ظروف الحرب العالمية الثانية، وهزيمة إيطاليا في الحرب، ووقوع الصومال الإيطالي تحت السيطرة البريطانية التي فرضت عليه حكمًا عسكريًا في الفترة ما بين 1941– 1950م.

(ب) **النمو السكاني**: كانت محافظة بنادر تاريخيًا – وفي كل العصور المختلفة– من أكثر المراكز الحضرية في الصومال من ناحية عدد السكان والكثافة السكانية، فقد ذكرت الإحصائيات الإيطالية الصادرة عام 1908 حينما تولت الحكومة الإيطالية رسميًا حكم المستعمرة بأن سكان الصومال في ذلك الوقت كان يقدر بحوالي 300 ألف نسمة[26]. وكان من أسباب التوسع العمراني للمدينة في العهد الإيطالي النزوح الكبير للمواطنين من المحافظات إلى العاصمة. ففي عام 1914 وهو بداية الحرب العالمية الأولى تظهر إحصائية الإدارة الاستعمارية الإيطالية أن تقديرات عدد سكان مقديشو وصلوا إلى حوالي واحد وعشرين ألف نسمة[27].

تزايد نمو السكان في العاصمة وبدأ يسير بوتيرة سريعة بعد ذلك، ففي منتصف الثلاثينيات وخصوصًا عام 1935م – أي بعد عشرين عاما تقريبًا – ارتفع العدد إلى 50 ألف نسمة، وهو ما يزيد على ضعف عدد السكان قبل عقدين من ذلك التاريخ، وليرتفع أيضا بعد أربع سنوات ويصل عام 1939م إلى 72 ألف نسمة. ومن الملاحظ أن الزيادة السكانية التي شهدتها مقديشو في تلك الفترة كانت بسب الاستثمارات الإيطالية ونمو التجارة، حيث أصبحت المدينة أهم مركز تجاري في المنطقة. وكان النازحون يبحثون عن فرص عمل لدى الإدارة الإيطالية. ومن ناحية أخرى فإن زيادة السكان في العاصمة لم يكن فقط يأتي من النزوح الصومالي وإنما كان هناك أعداد كبيرة من الإيطاليين تأتي

للحصول على فرص العمل والتجارة، الذين وصلوا عام 1939 حوالي عشرين ألف من الإيطاليين، والتي تمثل ما يقارب 30٪ من إجمالي السكان[28].

وكان معظم المستوطنين الإيطاليين الذين هاجروا إلى الصومال في تلك الفترة يحلمون بالحصول على الرفاهية ورغد العيش، والمغامرة من أجل هذا الحلم، وذلك بسبب الفقر وتأخر إيطاليا عن ركب التطور الصناعي في أوروبا الغربية ، والتأخر كذلك عن الحصول على المستعمرات حيث المواد الخام والأسواق، ولكن الحقيقة التي واجهها هؤلاء كانت خلاف ذلك ، إذ تمكن عدد ضئيل من هؤلاء المستوطنين من كسب الثروة، بينما الأغلبية كانت تعيش على حياة قريبة لمستوى الفقر[29].

لم يستمر النمو السكاني للعاصمة على نفس الوتيرة، فقد تناقص خلال فترة الحرب العالمية الثانية وخاصة منذ عام 1941 العام الذي تمت فيه هزيمة الإيطاليين في الحرب، وما تبعها من الحكم البريطاني العسكري للمدينة في الفترة اللاحقة، حيث فرضت بريطانيا حكمًا عسكريًا على المنطقة، فتوقفت حركة الهجرة الإيطالية إليها، كما تضاءلت أعداد النازحين الصوماليين نحو العاصمة.

(جـ) **التطور الإداري**: على الرغم من أن الإدارة الاستعمارية الإيطالية اتخذت مقديشو عاصمة للمستعمرة منذ عام 1908، إلا أن عملية التطوير الإداري وبناء المؤسسات تأخرت، حيث تم تأسيس بلدية مقديشو خلال أوج الحكم الاستعماري الإيطالي في الصومالي عام 1936، وفي قوة الحكم العسكري الفاشي في إيطاليا. ويعود تأسيس البلدية في تلك الفترة بالذات إلى عدة أسباب، أهمها: الاحتلال الإيطالي لإثيوبيا في نفس العام، وتأسيس إمبراطورية شرق أفريقيا الإيطالية التي شملت كلًّا من الصومال الإيطالي والحبشة وإريتريا، بحيث أصبحت مقديشو الميناء الأهم في الإمبراطورية الذي يخدم مناطق الإمبراطورية الواسعة، مما أنعش التجارة والاستثمار الإيطالي للمدينة، وزاد تبعًا لذلك نمو السكان من الصوماليين والإيطاليين[30].

وإذا كان لكل دولة من الدول الاستعمارية فلسفتها للحكم ونمطها المعين لإدارة شؤون الشعوب المستعمَرة، حيث اشتهرت فرنسا بنمط الحكم المباشر للشعوب، بينما

يوصف الحكم البريطاني بغير المباشر، فإن نمط الحكم الإيطالي شبيه بالنمط الفرنسي المثمثل في الحكم المباشر، وإن كان في بعض النواحي مختلط يجمع بين النمطين الفرنسي المباشر والبريطاني غير المباشر[31].

رابعا- من أبرز المعالم العمرانية الحديثة في مقديشو في العصر الإيطالي

تزخر مقديشو الكثير من المعالم والمرافق العمرانية الإيطالية الحديثة ذات الطابع الروماني التي تعود إلى العهد الاستعماري، والتي شيدتها الإدارة الاستعمارية الإيطالية – وخاصة الإدارة العسكرية الفاشية – في مقديشو، للأجهزة الحكومية وللمستوطنين الإيطاليين. وسوف نختار أربعة نماذج تعد من أبرز تلك المرافق، ونتناولها في هذا المحور بشيء من التفصيل، وهي: القصر الجمهوري (فيلا صوماليا) ومقر الحزب الفاشي (مقر البرلمان الصومالي بعد الاستقلال) وميناء مقديشو والمطار.

(1) **فيلا صوماليا**: من المنشآت العمرانية التي تم بناؤها في تلك الفترة قصر "آرت ديكو" الذي تحول بعد الاستقلال إلى القصر الجمهوري، حيث تم بناء القصر في الثلاثينيات من القرن الماضي في العهد الفاشي. وتم إنشاء القصر على الطراز المعماري المعروف بـ"فن ديكو" وهي مدرسة في الفن الزخرفي المعماري الذي ظهر في فرنسا في العشرينيات من القرن العشرين وانتشر بعد ذلك في أوروبا ، ويعتبر قصر آرت ديكو في مقديشو من أشهر المباني من هذا النوع في القارة الأفريقية[32].

وقد تم تشييد القصر ليكون مقرًا للحاكم العام الإيطالي لإقليم الصومال، وتم بناؤه في أعلى تل في المدينة يمكن من خلاله مشاهدة جميع أنحاء المدينة القديمة وإطلاله على المحيط، كما تم تشييد طريق يربطه بالميناء والمطار، وكان القصر يتكون من مبنى رئيس تحيطه حديقة واسعة تجذب أنظار الوفود والزوار[33]. وقد أصبح القصر بعد الاستقلال ولا يزال مقر الرئاسة الصومالية.

(2) **مقر الحزب الفاشي في الصومال (مقر البرلمان لاحقا)**: تم بناء القصر عام 1938، وكان يعرف بـ" القصر الفاشي" وكان الغرض من إنشائه أن يكون مقرًا للحزب الفاشي الحاكم آنذاك في المستعمرة، وتم بناء القصر بحجر المرمر الأحمر على مساحة تصل 1970مترًا مربعًا، وكان يضم 60 مكتبًا. وكان الفن المعماري للقصر يشبه مباني

مدينة فلورنسا التي شيدت في عصر النهضة الأوروبية التي انطلقت من المدن الإيطالية في القرن الرابع عشر الميلادي، وكان له برج ملحق بالمبنى يصل طوله 30 مترًا ويطلق عليه " توري ليتوريا Torre Littoria ". ويعتبر القصر أول مبنى في الصومال يدخل في بنائه الأسمنت والحديد الصلب[34].

وقد أصبح القصر مقرًا للبرلمان الصومالي منذ استقلال الصومال عام 1960 وحتى عام 1972 حيث تم نقل البرلمان إلى المقر الجديد الذي تم تشييده له وأطلق عليه "مقر مجلس الشعب"، وأصبح القصر بعد ذلك مقرًا لمحكمة الإنقاذ الوطنية التي شكلتها الحكومة العسكرية. وتعرض "القصر الفاشي" للدمار الكامل خلال فترة الحرب الأهلية، حيث لم يبق منه حاليًا سوى كومة من الركام، وبقي من ملامحه القديمة جزء من البرج الملحق الذي يظهر وسط الركام شاهدًا على ذلك التاريخ، حيث شهدت تلك المنطقة التي يقع فيها أكبر المواجهات العسكرية والقصف المتبادل بين الأطراف المتحاربة خلال الحرب الأهلية.

(3) ميناء مقديشو: يعتبر ميناء مقديشو من أقدم الموانى الطبيعية في منطقة شرق أفريقيا التي كانت ضمن شبكة تجارة المحيط الهندي والشرق الأقصى، ولكن يعود تأسيس وتطوير ميناء مقديشو الحديث في الحقبة الاستعمارية، ويعود إنشاء الميناء بالذات في العشرينيات من القرن العشرين في المنطقة المعروفة حاليا بالميناء القديم[35]. وفي الثلاثينيات من القرن العشرين في أوج الحكم الفاشي في إيطاليا تم تطوير وتوسعة الميناء، حيث تم أيضًا بناء صور حجري يحيط الرصيف وذلك لحمايته من الأمواج العالية التي تضربه في مواسم المدّ البحري، وتسبب الأضرار للبضائع أثناء تفريغ الحمولة. ومن ناحية أخرى تم إنشاء خط سكك حديد يبدأ من الميناء وينتهي بمدينة جوهر التي تبعد عن العاصة حوالى 90كم، والتي تعد من أهم المناطق الزراعية في الصومال[36].

وقد بلغت البضائع التي تم تصديرها عبر الميناء عام 1934 على سبيل المثال 43 طن من الإنتاج الزراعي في الصومال، ومعظمها من الموز الصومالي الذي كان يتم تصديره إلى إيطاليا. وكانت هناك شركة إيطالية تسمى "Regia Azienda Monopolio Banane"

التي كانت تملك أربع سفن، هي المحتكرة لتصدير الموز الصومالي إلى الخارج. وبدأت خدمات الميناء تتوسع بعد ذلك حيث استحدث عام 1936 خطان ملاحيان لخدمة الركاب ، الخط الأول كان : جنيوا – مصوع – مقديشو – كسمايو، أما الثاني فكان: جنيوا – مصوع – مقديشو[37].

(4) مطار مقديشو: تم تأسيس مطار مقديشو عام 1928 وكان يعرف آنذاك بـ " Petrella Mogadiscio Aeroporto ". وكان في بدايته مطارًا عسكريًا أنشئ لخدمة الأغراض العسكرية للحكومة الفاشية. وفي الثلاثينيات من القرن العشرين بدأت خدمات المطار تتوسع لتشمل تسيير خطوط مدنية للشحن التجاري والركاب، حيث انطلقت عام 1935 أولى الخطوط المدنية للركاب نحو: مقديشو- أسمرا – الخرطوم – طرابلس – روما[38]. توقف المطار عن العمل خلال الحرب العالمية الثانية، وذلك بعد هزيمة إيطاليا في الحرب. أصبح المطار بعد الاستقلال مطارًا دوليًا مدنيًا ، ولا يزال يمثل المطار الدولي الوحيد للصومال حتى اليوم.

الخاتمــة

تعد مدينة مقديشو من أقدم المدن في الصومال وأكبرها حيث يتجاوز عمرها حدود الألف سنة الماضية، ولا تكمن أهيمة المدينة في أقدميتها فقط، بل إنها تميزت بمركزيتها التي حافظت عليها، وثقلها السياسي والتجاري في العصور الإسلامية والحقبة الاستعمارية، وفي العصر الحديث بعد أن أصبحت عاصمة الصومال بعد الاستقلال، والعاصمة السياسية والثقافية للصوماليين في منطقة القرن الإفريقي. وبحكم مركزية المدينة في التاريخ الصومالي الوسيط والحديث فإنها تحوي الكثير من تاريخ وتراث الصومال، الأمر الذي يُلزِم المؤرخين والباحثين الصومالين استكشاف ذلك التراث الهائل واستنطاقه، ومن ثم الحفاظ -من خلال تلك العملية – على ذاكرة الأمة الصومالية وكنوزها الحضارية.

وهذه الورقة تعتبر جهدًا متواضعًا في هذا الصدد، واغترافًا قليلًا في بحر هذا التراث العظيم، لإلقاء الضوء على مرحلة مهمة من مراحل ذلك التاريخ، ألا وهي حقبة الحكم الإيطالي الاستعماري، حيث تم بناء الأحياء الجديدة والقصور والمباني الحديثة، واتخذت المدينة الشكل المعماري الروماني، وخصوصًا في عهد الحكم العسكري الفاشي في الفترة ما بين عامي 1923و 1942، كما تم أيضًا بناء المعالم السياسية والاقتصادية التي تزخر بها المدينة، والتي لا تزال الكثير منها تبدو صامدة رغم الدمار الذي أصاب المدينة خلال العقود الثلاثة الأخيرة من الحرب الأهلية. كما تتميز دراسة تلك المرحلة بتوفر الوثائق الإيطالية المحفوظة في المكتبات والدوائر الحكومية الإيطالية.

وإذا كانت عملية التنقيب عن الآثار الصومالية – التي لم تنطلق بعد – تحتاج إلى الكثير من الجهد والمال، فإن كتابة التاريخ الصومالي – سواء بجهود فردية أو مؤسسية – لا تتطلب توفر الكثير من الأموال، مما يلقي على عائق الباحثين والمؤرخين الصوماليين مسؤولية القيام بهذه المهمة اعتمادًا على جهودهم الذاتية، ودون انتظار أي دعم أو مساندة من الجهات الرسمية.

وفي الختام فإن لدى الباحث قناعة تامة بأن كتابة تاريخ الصومال في الحقبة الاستعمارية وكتابة تاريخ مقديشو – التي تحوي الكثير منه على وجه الخصوص – سوف تضيء الطريق لمستقبل أفضل للصومال، وسوف يساهم أيضا في فك الألغاز التي تحول دون فهم معضلة الصومال السياسية والاقتصادية والثقافية.

الهوامـــش

1. Dr. Abdurahman Abdullahi (Baadiyow), Making Sense of Somali History (Volume One), Adonis & Abbey Publishers Ltd, 2017, P. 48.
2. حاضر العالم الإسلامي، لوثروب ستودارد الأمريكي، نقله إلى العربية الأستاذ عجاج نويهض، تعليق الأمير شكيب أرسلان، المجلد الثاني، الجزء الثالث، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1394هـ - 1973م، ص 73.
3. ابن بطوطة: تحف النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تعليق محمد السعيد محمد الزيني، الجزء الأول، المكتبة التوفيقية، القاهرة، ص230.
4. المسيو جيان، وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية، نقله إلى العربية الأمير يوسف كمال باشا، دار الفضيلة-2015،ص 183.
5. جيان، مصدر سابق، ص 210.
6. نفس المصدر والصفحة.
7. نفس المصدر، ص 248.
8. Ahmed Duale , The Origins and Development of Mogadishu AD 1000 to 1850, A study of urban growth along, the Benadir coast of southern Somalia Studies in African Archaeology 12,Uppsala, 1996, P. 88
9. جيان، مصدر سابق، 322.
10. نفس المصدر، ص 278-279.
11. نفس المصدر، ص 355.
12. Martino Reviglio, The United Nations, Italy and Somalia: a 'sui generis' relation 1948-1969 (Master's Thesis), Utrecht Universiteit, 2014, P. 15.
13. راجع نص الاتفاقية في: Rpbert L. Hess, Italian Colonialism in Somalia, The University of Chicago Press, Chicago-London, 1966. P. 197-201.
14. Ibid. P. 26
15. Ibid. P. 29
16. Ibid.
17. Martino Reviglio, Op. Cit. P. 16.
18. Mohamed Haji Mukhtar, Historical Dictionary of Somalia, New Edition, African Historical Dictionary Series, The Scarecrow Press, No. 87, P. 48.
19. Martino Reviglio, Op. Cit. P. 18.

20. ومن هذه الطرق، الطريق الذي يبدأ من مقديشو ويمر مدينة بلدوين ويتوغل في داخل الإقليم الصومالي في إثيوبيا حاليا، والذي كانت إيطاليا تنوى إيصاله إلى أديس أبابا.

21. Inghan, Kennath: History of East Africa, New York, Washington, third printing, 1967, P. 370

22. راجع ميثاق الأمم المتحدة، الفصل الثالث عشر (نظام الوصاية الدولي) ، المادة السادسة والسبعين

23. Rick Davies,The Village, the Market and the Street: A Study of Disadvantaged Areas and Groups in Mogadishu, Somalia, Funded by CIIR, UNICEF, Oxfam and CCFD. Mogadishu. 1988, P. 19-20.

24. Rick Davies, Op. Cit. P. 20

25. Ibid

26. Martino Reviglio, Op. Cit. P. 16.

27. Rick Davies, Op. Cit. P. 19

28. Rick Davies, Op. Cit. P. 20

29. Martino Reviglio, Op.Cit. P. 9

30. Rick Davies, Op. Cit. P 20.

31. .Martino Reviglio, Op.Cit. P. 13

32. ITALIAN MOGADISCIO, http://researchomnia.blogspot.com/2017/12/italian-mogadiscio.html

33. Rakesh Ramchurn, A new exhibition highlights the damage wrought on the Modernist buildings of Somalia's capital city by 20 years of civil war, https://www.architectsjournal.co.uk

34. ITALIAN MOGADISCIO, Op. Cit.

35. Alberto Arecchi, MOGADISCIO – E I PROBLEMI DELL'URBANESIMO IN SOMALIA, BOLLETTINO DELLA SOCIETA GEOGRAFICA ITALIANA, ROMA. Ser. XI. Vol. I, 1984, PP. 639-654.

36. Ibid.

37. Guglielmo Evangelista, I porti dell'Eritrea (dekadaha eratariya), 20-5-2008, http://www.ilcornodafrica.it/st-porti.htm.

38. Flavio Riccitelli (A.I.D.A.), ALA LITTORIA S.A. (1934 - 1941) , http://www.ilpostalista.it/unico2004pag 55.htm